أبحاث تاريخية جديدة

الإسلام في غرب أفريقية

مدى انتشاره في تلك الأقاليم ومبلغ أثره في الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تقدمة

بدأ الإسلام في شبه جزيرة العرب ... ومنها انتشر سريعاً في مختلف أنحاء العالم فوصل إلى الصين شرقاً امتد إلى الأندلس والمحيط الأطلسي غرباً. وأينما وصل الإسلام نشأت حضارة إسلامية جديدة أخذت عناصرها من حضارة الإقليم المحرمة المحطمة ومن حضارة الدين الجديد وتعاليمه... ثم استقرت هذه الحضارات، كل حضارة في إقليمها الخاص بها ... وظهرت لها بمرور الزمن مميزات خاصة ... ولكن هذه الحضارات كانت تتصف بصفات مشتركة تجتمع فيها عند نقطة واحدة تميزها جميعاً... تلك هي أنها حضارات إسلامية

وفي كل بلد من هذه البلاد الإسلامية وجدت معاهد للعلم ونشأ العلماء في كل فن ... ونبغوا ... ورحلوا ... ونشروا دينهم ... وكتبوا الكتب تتحدث عن كل علم وفن ... وتصف كل قطر عرفوه أو رحلوا إليه أو نقلوا إليه دينهم ...

وكانت بلاد المغرب إحدى تلك الأقاليم التي انتشر فيها الإسلام وإحدى تلك الأقاليم التي نشرت الإسلام في طول الصحراء وعرضها حتى وصل إلى حدود الكمرون جنوباً وإلى شاطئ المحيط الأطلسي غرباً ... وقد تحدث المؤرخون الإسلاميون عن هذه الجهات في كتبهم ورحلاتهم ...

فأبو عبيد البكري الأندلسي وابن فياض الأندلسي وابن خرداذبة كلهم يتحدثون عنها وعن حدودها فيقولون: « فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومي مدينة أنطابلس المعروفة ببرقة، وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم مدينة طنجة، وطنجة هذه آخر بلاد المغرب المحقق وما بعدها من البلاد فإنما هو في الجنوب إلى أن يأتي بلاد الحبشة والهند ... »

أما ابن بطوطة فقد جاب الصحراء المسلمة واتصل بقبائلها وملوكها ووصل حتى بلدة كارسخو بين نهري النيجر والشنغال. وابن بطوطة رحالة عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وقد طاف في معظم الجهات الإسلامية المعروفة في ذلك الحين ومنها غرب أفريقية؛ وقد أحببت أن أنقل عنه أخبار انتقاله باختصار لتكون دليلاً مادياً على وصول الإسلام لتلك الجهات وإن كان الرجل يخلط خلطاً غريباً بين نهري النيل والنيجر، ولكن له في الواقع عذره لجهل العالم كله في ذلك العصر بأواسط أفريقية ومنابع أنهارها. يقول ابن بطوطة:

« ثم سرنا من زاغرى فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو؛ والنيل ينحدر منها إلى كابرة، ثم إلى زاغة؛ ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي ... وأهل زاغة قدماء في الإسلام ولهم ديانة وطلب للعلم؛ ثم ينحدر النيل إلى تنبكتو، ثم إلى كوكو، ثم إلى بلدة مولى من بلاد الليميز — وهي آخر عمالة مالي — ثم إلى يوفي، وهي من أكبر بلاد السودان، وسلطانها من أعظم سلاطينهم؛ ثم ينحدر إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية؛ ثم إلى دنقلة، وهي أكبر بلادهم وسلطانها يدعى بابن كنز الدين أسلم أيام الملك الناصر؛ ثم ينحدر إلى جنادل، وهي آخر عمالة بالسودان، وأول عمالة أسوان من صعيد مصر »

« ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنغرة، ثم رحلنا إلى بلدة ميمة فنزلنا منها على آبار بخارجها، ثم سافرنا منها إلى مدينة تنبكتو، ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة، ثم سرت إلى مدينة كوكو وهي مدينة كبيرة على النيل؛ ثم سافرت منها إلى تكدا، ووصلنا إلى كاهر من بلاد السلطان التكركري؛ ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في برية لا عمارة فيها إلا أن بها الماء، ووصلنا إلى الموضع الذي يفرق به طريق غانة الآخذ إلى ديار مصر وطريق توات، وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى هكار وهم طائفة من البربر ملثمون، وسرنا من بلاد هكار شهرا، ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر، ثم وصلنا إلى بودا وهي من أكبر قرى توات، وأقمنا ببودا أياماً ثم سافرنا في قافلة، ووصلنا في أواسط ذي القعدة إلى مدينة سجلماسة ... الخ[1] »

(١) رحلة ابن بطوطة — طبعة وزارة المعارف سنة ١٩٣٣ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣

وهو إذ يتحدث عن معدن النحاس ص ٣٢٠ يقول «ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار — وإلى غاى — وإلى بلاد برنو وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدا أهلها مسلمون ولهم ملك اسمه ادريس ...»

من هذا نستبين بكل وضوح أن أقصى ما وصل إليه ابن بطوطة غرباً هو مدينة «كارسخو» وهو في كل تلك المنطقة التي طاف بها يذكر لنا أنه كان ينزل بسلطان الولاية المسلم يرحب به ويجمعه بقضاة الولاية وعلمائها. غير أن ابن بطوطة لم يصل إلى شاطىء المحيط من جهة الغرب في حين أن الاسلام كان منتشراً في غانة في ذلك الحين كما سنرى من قول ابن خلدون المعاصر لابن بطوطة في كتابه «المغرب في تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب» وهو يبدأ بتحديد بلاد المغرب وغرب أفريقية على عهده، وله في ذلك ثقة لأنه نشأ في تونس وتنقل في معظم بلاد المغرب كتلمسان وبسكرة وبجاية وغيرها. واتصل بالحكام في كل تلك الاقاليم، وله كتابه المشهور (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر)

صورة المغرب كما جاءت في كتاب «المغرب» لابن خلدون

«إن المغرب قطر واحد متميز الأقطار، فحده من جهة الغرب البحر المحيط، وعليه كثير من مدنه مثل طنجة وسلا وأدفو وأنفى وأسفى، وهي كلها من مساكن البربر وحواضرهم؛ وأما حده من جهة الشمال فالبحر الرومي المتفرع من هذا البحر المحيط يخرج في خليج متضايق ما بين طنجة من بلاد المغرب وطريف من بلاد الأندلس؛ وأما حده من جهة القبلة والجنوب فالرمال المستهيلة الماثلة حجزا بين بلاد السودان وبلاد البربر، ويعرف عند البادية بالعرق، وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدىء من البحر المحيط وذاهب في جهة الشرق على سمت واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى مصر فهنالك ينقطع؛ وأما حده من جهة الشرق فيختص بطرابلس وما وراءها إلى جهة المغرب مثل أفريقية والزاب والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والسوس الأدنى والأقصى. هذا هو المغرب في العرف لهذا العهد وهو الذي كان في القديم ديار البربر ومواطنهم [1]»

(١) (المغرب في تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب) لابن خلدون. طبعة لايدن سنة ١٨٤٨، ص ١١٨ وما بعدها

ومن هذا نرى أن ابن خلدون في وصفه للبلاد أدق بكثير من غيره من كتاب العرب؛ وتبدو لنا دقته من وصفه لتفرع بحر الروم من البحر المحيط، وتبدو لنا دقته بوضوح بعد هذا بقليل عند ما يتتبع العرق حتى يصل إلى النيل. وسيبدو لنا ابن خلدون أكثر دقة عند كلامه عن شعوب البربر، وقد أردت أن أبدأ بوصف جونستون لهذه الشعوب ثم أتبعه بوصف ابن خلدون؛ وسنرى بعد قراءة الوصفين أن ابن خلدون على تقدم عصره كان أجمل وصفاً وأدق تعبيراً من جونستون. ولا غرو فابن خلدون ابن تلك القيافي والبلاد. وسنأتي الآن بتقسيم جونستون لجماعات البربر: في أوائل القرن السابع كان الجنس الليبي أو بربر شمال أفريقية الذين كانوا يسكنون كل المنطقة الواقعة بين الحدود الغربية لمصر (بعد واحة سيوة) شرقاً وساحل مراكش غرباً ينقسمون إلى: —

(١) البربر الشرقيون أو الليبيون (لواتا Luota وهوارة Huore وأوربغا Aurjgha ونفوسة Nefuse) ويسكنون قيرينيقا وطرابلس وتونس وجزءاً من شرق الجزائر

(٢) البربر الغربيون أو صنهاجة Senhaga وكانوا يشغلون سواحل الجزائر وغربيها وكل مراكش حتى يصلوا إلى حدود الصحراء جنوباً

(٣) زناتة Zeneta وهم أقتم لوناً وقد انحدروا من Getulians وقد يتصلون في الأصل بالنولا الذين سكنوا في القرن السابع أجزاء كانت تقل أو تكثر من الإقليم الصحراوي جنوب الجزائر وتونس ومراكش ومن زناتة انحدر البربر المزاب Mzab Berbers الحديثون وقبائل الورجلي Wargli People وبنو مرين Beni Merin الذين أسسوا أسرة حكمت البربر فيما بعد

وقد دُفع كثير من زناتة السود إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط في فترات مختلفة، كما أن كثيرين من البربر الشرقيين أو الليبيين قد دفعوا إلى قلب الصحراء تحت تأثير العرب الفاتحين ومنهم نشأت مزقة الطوارق فيما بعد. وكذلك هاجر كثيرون من البربر الغربيين أو الصنهاجيين في القرن السابع إلى الصحراء جنوباً واستقروا شمال نيجريا وشمال حدود السنغال فليس هناك من شك أن كلمة زناجا Zenaga (اسم قبيلة من قبائل

البربر) قد أخذت من صنهاجة ثم حرّف البرتغاليون زناجا فيما بعد فأصبحت « سنغال »[1]

وفى القرن السابع كذلك كانت هناك علاقات تجارية بين زنوج الجارامنت Negroid Garamantes وبين جنوب وشرق ليبيا ووصلت هذه العلاقات حتى كانم وبحيرة شاد ودارفور وكردفان ، فكانت هذه الطرق أكبر مسهل للعرب فى فتوحهم المستقبلة للسودان وبلاد المغرب

هذا ملخص تقسيم جونستون لهذه القبائل . ولنر الآن ماذا يقول ابن خلدون فى وصفها قال : « هذه الأمم السودان من الآدميين هم أهل الإقليم الثانى وما وراءه إلى آخر الأول ، بل وإلى آخر المعمور متصلون ما بين المغرب والمشرق يجاورون بلاد البربر بالمغرب وافريقية وبلاد اليمن والحجاز بالوسط ، والبصرة وما وراءها من بلاد الهند بالمشرق ؛ وهم أصناف وشعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج والحبشة والنوبة ، وأما أهل المغرب فنحن ذاكروهم ، وأما نسبهم فإلى حام بن نوح »

« وعد ابن سعيد من قبائلهم وأممهم تسع عشرة أمة فمنهم بالمشرق الزنج على بحر الهند ولهم مدينة متبسة وهم مجوس ويليهم بربرا ، والإسلام لهذا العهد فاش فيهم ولهم مدينة مقدشوا على على البحر الهندى يعمرها تجار المسلمين ، ومن غربيهم وجنوبهم الدمادم وهم حفاة عراة ؛ ويليهم الحبشة وهم أعظم أمم السودان وهم مجاورون لليمن على شاطىء البحر الغربى منه ؛ ويليهم البجا وهم نصارى ومسلمون ولهم جزيرة مدينة دنقلة غرب النيل وأكثرهم نصارى ؛ ويليهم زغاوة وهم مسلمون ومن شعوبهم تاجرة ؛ ويليهم كانم وهم خلق عظيم والإسلام غالب عليهم ومدينتهم جيمى ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فزان ؛ ويليهم عن غربيهم كوكو وبعدهم نقارة والتكرور ولمى وغنم وجابي وكوري وانكرار ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانة فى الغرب »

« ولما فتحت أفريقية المغرب دخل التجار بلاد المغرب منهم فلم يجدوا فيها أعظم من ملك غانة . كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك ، وكانت مجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما زعم الناقلون تعرف بصوصو . ثم بعدها أمة أخرى تعرف بمالى . ثم بعدها أمة أخرى تعرف بكوكو ويقال لها كاغو . ثم بعدها أمة أخرى تعرف بالتكرور . ثم إن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الثلثين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلى بلاد البربر واعتزوا على السودان واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الأتاوات والجزى ، وحملوا كثيراً منهم على الاسلام فدانوا به ؛ ثم اضمحل ملك أصحاب غانة وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أهل السودان واستعبدوهم وأصاروهم فى جملتهم . ثم إن أهل مالى كثروا أمم السودان فى نواحيهم تلك واستطالوا على الأقاليم فتغلبوا على صوصو وملكوا جميع ما بأيديهم من ملكهم القديم ، وملك أهل غانة إلى البحر المحيط من ناحية الغرب وكانوا مسلمين يذكرون أن أول من أسلم منهم ملك اسمه « برمندانة » . ثم يذكر ابن خلدون بعد ذلك من تولى الحكم بعد هذا الملك حتى يصل إلى الملك ساكوره (سبكرة) فيقول عنه : « وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم وافتتح بلاد كوكو وأصارها فى ملكة أهل مالى فاتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التكرور فى المشرق ، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وأفريقية ... الخ »

هذا هو كلام ابن خلدون وقد تعمدت أن أنقله فى هذه السطور الكثيرة لأنه قد شرح ما ألم به ابن بطوطة وما أجمله جونستون ، فمن كلام ابن خلدون نستطيع أن نفهم بوضوح أى القبائل كانت تسكن فى كل تلك الأقاليم ، ونستطيع أن نفهم بوضوح أى هذه القبائل كانت تدين بالإسلام وإلى أى حد وصل الإسلام ؛ ولكن ابن خلدون عاش فى أوائل القرن الرابع عشر كما قلنا وهو إذ يتحدث عن هذه الديار يتحدث عنها كديار إسلامية انتقل إليها الإسلام من مختلف الجهات واستقر بها وأثر فى أهلها ، ولكننا قد نتساءل بعد هذا : كيف دخل الإسلام إلى تلك الجهات وكيف اقتحم على أولئك الزنوج غاباتهم وأحراجهم وبيوتهم ومدنهم ؟ وكيف أثر فى الأهلين وفى عاداتهم وأخلاقهم ؟ هذا ما سنتناوله الآن بالبحث

(يتبع) جمال الدين محمد الشيال

(١) جونستون — استعمار افريقيا — كامبردج سنة ١٩١٣ ص ٥٤